

الفيلُ الأبيضُ

## الفيل الأبيض

(١) «أبو الحجاج»

كَانَتْ الْحَيَوَانَاتُ تَتَكَلَّمُ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ: أَعْنِي فِي الْعُصُورِ الْأُولَى الَّتِي انْقَضَى عَلَيْهَا آلافُ السِّنِينَ. كَانَتْ تَتَكَلَّمُ كَمَا يَتَكَلَّمُ الْإِنْسَانُ. وَقَدْ عَاشَ — فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْغَابِرَةِ — جَمَهْرَةٌ مِنْ الْأَقْيَالِ عَيْشَةً رَغْدَةً هَنِيبَةً، فِي بَعْضِ الْغَابَاتِ الْقَرِيبَةِ مِنْ جِبَالِ «الْهَمَلَايَا» فِي الْهِنْدِ. وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَقْيَالُ جَمِيلَةً الْمُنْظَرِ، حَسَنَةً الشُّكْلِ، وَقَدْ فَاقَهَا جَمِيعًا فِيلٌ يُدْعَى: «أَبَا الْحَجَّاجِ»، وَهُوَ أَبْيَضٌ، ضَخْمُ الْجُنَّةِ، نَبِيلُ النَّفْسِ؛ فَأَصْبَحَ بَيْنَ الْأَقْيَالِ جَمِيعًا حَيْرَ مِثَالٍ لِأَنْبِلِ الْمَزَايَا، وَأَكْرَمِ الْأَخْلَاقِ.

(٢) «أُمُّ شَبْلٍ»

أَمَّا «أُمُّ شَبْلٍ» — وَهِيَ أُمُّ ذَلِكَ الْفِيلِ الْوَدِيعِ الْكَرِيمِ النَّفْسِ — فَقَدْ كَانَتْ، وَالْحَقُّ يُقَالُ، حَكِيمَةً مُجَرَّبَةً، تَجَمُّعٌ — إِلَى سُمُوِّ السَّجَايَا — بَعْدَ النَّظَرِ، وَأَصَالَةَ الرَّأْيِ، وَصِدْقَ الْفِرَاسَةِ (صِحَّةَ الْإِسْتِدْلَالِ مِنَ الظُّوَاهِرِ الْبَادِيَةِ). وَلَكِنَّ الشَّيْخُوخَةَ أَقْعَدَتْهَا — لِسُوءِ الْحِظِّ — وَأَعْجَزَتْهَا عَنِ السَّرِيرِ، وَكُفَّ بَصَرُهَا (عَمِيَتْ). فَاشْتَدَّ عَجْزُهَا، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهَا آفَاتُ الْهَرَمِ وَعِلُّهُ؛ فَلَبِثَتْ — فِي مَكَانِهَا — لَا تَنْتَقِلُ خُطْوَةً، وَلَا تُحْرِكُ قَدَمًا.

### (٣) وفاء «أبي الحجاج»

وَقَدْ كَانَ وَفَاءً «أَبِي الْحَجَّاجِ» لِأَمِّهِ عَلَى أَحْسَنِ مَا يَفِي وَلَدٌ بَارٌّ لِوَالِدَتِهِ الْحُنُونِ. نَعَمْ، عُنِيَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» بِ«أُمِّ شَبْلٍ» الْعِنَايَةَ كُلَّهَا، وَلَمْ يَأُلْ جُهْدًا فِي إِسْعَادِهَا وَبِرِّهَا، وَتَلْبِيَةِ طَلِبَتِهَا. وَكَانَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» يَخْرُجُ — كُلَّ يَوْمٍ — لِيَجْمَعَ لِأَمِّهِ الْعَجُوزِ أَطْيَبَ الْفَوَاكِهِ الْبُرِّيَّةِ اللَّذِيذَةِ الطَّعْمِ، وَلَا يَدْعُ لَهَا مَجَالًا لِلتَّحَسُّرِ عَلَى أَيَّامِ شَبَابِهَا الْأُولَى؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُومُ لَهَا بِكُلِّ مَا تَشْتَهِيهِ مِنْ أَلْوَانِ الْأَطْعِمَةِ، وَصُنُوفِ الْأَشْرِبَةِ.

### (٤) لُصُوصُ الْأَفْيَالِ

وَلَكِنَّ أَمْرًا وَاحِدًا كَانَ يُزْعِجُ «أَبَا الْحَجَّاجِ» وَيَهْمُهُ، وَيَمَلَأُ نَفْسَهُ حُزْنًا وَأَسَى؛ ذَلِكَ: أَنَّهُ رَأَى كَثِيرًا مِنَ الْأَفْيَالِ الْأُخْرَى، تَسْرِقُ طَعَامَ أُمَّهِ الْعَجُوزِ، الَّتِي كُفَّ بِصَرِّهَا، وَاشْتَدَّ عَجْزُهَا. وَقَدْ أَنْبَهُمُ «أَبُو الْحَجَّاجِ» عَلَى ذَلِكَ مَرَّاتٍ عَدَّةً، وَأَظْهَرَ لَهُمْ — فِي أَجْلِ بَيَانِ، وَأَوْضَحِ اسْلُوبِ — أَنَّ عَمَلَهُمْ هَذَا غَايَةٌ فِي النَّذَالَةِ، وَلُؤْمِ الطَّبْعِ، وَفَسَادِ الْخُلُقِ، وَحَدَّرَهُمْ مِنَ الْعُودَةِ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْفَعْلَةِ الْمَمْقُوتَةِ الشَّنْعَاءِ. وَلَكِنَّ الْأَفْيَالَ لَمْ تَقْلَعْ عَنْ عَادَتِهَا، وَلَمْ تَكْفَ عَنْ سَرِقَةِ الطَّعَامِ الَّذِي كَانَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» يَكُدُّ — طُولَ يَوْمِهِ — لِيَجْمَعَهُ لـ«أُمِّ شَبْلٍ».

### (٥) الْعَزَلَةُ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ انْتَحَى «أَبُو الْحَجَّاجِ» أُمَّهُ جَانِبًا، وَقَالَ لَهَا مَحْزُونًا: «لَقَدْ تَمَادَى أَصْحَابُنَا الْأَفْيَالُ فِي جَوْرِهِمْ وَعُدْوَانِهِمْ عَلَيْنَا. وَخَيْرٌ لِي وَلِكَ يَا أُمَّاهُ — فِيمَا أَرَى — أَنْ نَعِيشَ فِي عَزَلَةٍ، بَعِيدِينَ عَنْ هَؤُلَاءِ اللَّصُوصِ الْخَائِنِينَ، فَإِذَا رَأَيْتِ رَأْيِي وَرَضِيتِ عَنْ هَذَا الْاِقْتِرَاحِ فَلَا تَتَوَانَى فِي الذَّهَابِ مَعِيَ إِلَى كَهْفٍ قَرِيبٍ، قَدْ تَخَيَّرْتُهُ لِسُكْنَانَا جَمِيعًا، وَهُوَ عَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْغَابَةِ. فَمَاذَا أَنْتِ قَائِلَةٌ؟»

فَارْتَاخَتْ «أُمُّ شَبْلٍ» لِهَذَا الْاِقْتِرَاحِ السَّدِيدِ، وَلَمْ تُعَارِضْ فِي تَلْبِيَّتِهِ، وَسَارَتْ — مِنْ فَوْرِهَا — إِلَى حَيْثُ يَقُودُهَا «أَبُو الْحَجَّاجِ»، حَتَّى وَصَلَا إِلَى مَاوَاهُمَا الْجَدِيدِ، وَاسْتَقَرَّا فِي الْكَهْفِ.

وَكَانَ الْكَهْفُ حَسَنَ الْمَوْقِعِ، قَرِيبًا مِنْ بَعْضِ الْمُرُوجِ الْمُخَصَّصَةِ، الْمَمْلُوءَةِ بِأَطْيَبِ الْفَوَاكِهِ الْبُرِّيَّةِ، وَأَشْهَى الثَّمَارِ اللَّذِيذَةِ، وَإِلَى جَانِبِهِ بُحَيْرَةٌ صَغِيرَةٌ، مُغَطَّاءٌ بِأَزَاهِيرِ «اللُّوتِسِ» حَيْثُ عَاشَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» مَعَ أُمِّهِ زَمَنًا طَوِيلًا، آمِنِينَ وَادِعِينَ، قَرِيرِي الْعَيْنِ، نَاعِمِي الْبَالِ، لَمْ يُكَدِّرْ صَفْوَهُمَا أَيُّ كَدْرٍ.

### (٦) نَصِيحَةٌ «أُمِّ شَبْلِ»

وَذَاتَ مَسَاءٍ كَانَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» يَتَحَدَّثُ إِلَى «أُمِّ شَبْلِ» فِي الْغَارِ — عَلَى عَادَتِهِمَا — وَيُخَوِّضَانِ شَتَّى الْأَسْمَارِ وَمُخْتَلَفِ الذُّكْرِيَّاتِ. وَإِنَّهُمَا لَكَذَلِكَ، إِذْ طَرَقَ آذَانُهُمَا صِيَاخُ عَالٍ يُدَوِّي فِي الْغَابَةِ عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنْهُمَا. فَقَالَ «أَبُو الْحَجَّاجِ»: «أَلَا تَسْمَعِينَ — يَا أُمَّاهُ — إِلَى هَذِهِ الصَّيْحَاتِ الْعَالِيَةِ؟ إِنَّهَا — بِلَا رَيْبٍ — صِيْحَاتُ إِنْسَانٍ يَطْلُبُ النَّجْدَةَ، وَيَلْتَمِسُ الْعَوْتَ، وَلَعَلَّهُ يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فَرِيْسَةً فِي قَبْضَةِ أَحَدِ أَعْدَائِهِ، وَلَا بَدَّ لِي مِنَ الْإِسْرَاعِ إِلَيْهِ، لَعَلِّي أَسْتَطِيعُ إِنْقَاذَهُ مِنَ الْهَلَاكِ.»

فَقَالَتْ لَهُ «أُمِّ شَبْلِ»، وَهِيَ تُحَدِّرُهُ عَاقِبَةَ هَذَا الْأَمْرِ، وَتَرْجُرُهُ عَنِ التَّعَرُّضِ لَهُ: «كَلَّا — يَا وَلَدِي — لَا تَفْعَلْ؛ فَإِنِّي — وَإِنْ رَأَيْتَنِي عَجُوزًا عَمِيَاءَ، وَذَلِكَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ — أَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ عَذْرَ الْأَدَمِيِّينَ بِنَا، وَإِيقَاعَهُمْ بِجِنْسِنَا، وَتَفَنُّنُهُمْ فِي طُرُقِ الْإِحْتِيَالِ عَلَى صَدِينَا. وَإِنِّي لَأُوْكَدُّ لَكَ أَنَّكَ إِذَا أَنْقَذْتَ هَذَا الْإِنْسَانَ التَّاعَسَ الْمُسْكِينَ، وَخَلَّصْتَهُ مِنَ الْهَلَاكِ، فَلَنْ يُقَابِلَ هَذَا الْإِحْسَانَ بِغَيْرِ الْإِسَاءَةِ وَالْجُحُودِ وَالْخِيَانَةِ وَالْكَنُودِ.»

### (٧) مُخَالَفَةُ النَّصِيحَةِ

وَلَكِنَّ «أَبَا الْحَجَّاجِ» لَمْ يُصْغِحْ إِلَى نَصِيحَةِ أُمِّهِ، وَلَمْ يُطِيقِ الْبَقَاءَ إِلَى جَانِبِهَا، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَلَكَّأَ فِي إِغَائِثِ الْبَائِسِ الْمَلْهُوفِ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يُنْقِذَهُ مِمَّا أَلَمَّ بِهِ؛ فَقَالَ «لَأُمِّ شَبْلِ» مُتَلَطِّفًا: «أَغْفِرِي لِي — يَا أُمَّاهُ — أَنْ أَخَالَفَ نَصِيْحَتَكَ لِلْمَرَّةِ الْأُوْلَى فِي حَيَاتِي؛ فَلَيْسَ فِي وَسْئِعِي أَنْ أَكْفُفَ عَنِ مُعَاوَنَةِ طَالِبِ نَجْدَةٍ أَيًّا كَانَ جِنْسُهُ، وَلَنْ أُطِيقُ سَمَاعَ هَذِهِ الصَّيْحَاتِ الْعَالِيَةِ الْمُؤَلِّمَةِ، دُونَ أَنْ أَبْدُلَ جُهْدِي فِي إِنْقَاذِ صَاحِبِهَا مِنْ مَأْزِقِهِ.»

(٨) حَدِيثُ الْحَطَّابِ

ثُمَّ أَسْرَعَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» صَوْبَ الْجِهَةِ الَّتِي انْبَعَثَتْ مِنْهَا الصَّيْحَاتُ؛ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بُحَيْرَةَ «اللُّؤْتِسِ» لَمَحَتْ عَيْنَاهُ رَجُلًا يَلْبَسُ ثِيَابَ الْحَطَّابِينَ. وَلَمْ يَكُنْ «أَبُو الْحَجَّاجِ» يَدْنُو مِنْهُ، حَتَّى هَمَّ الرَّجُلُ بِالْفِرَارِ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ. وَلَكِنَّ «أَبَا الْحَجَّاجِ» قَالَ لَهُ مُتَلَطِّفًا:  
«لَا تَخَشْ مِنِّي شَيْئًا — أَيُّهَا الْغَرِيبُ — وَحَدَّثَنِي بِحَدِيثِكَ لِأَتَعَرَّفَ قِصَّتَكَ؛ فَمَا جِئْتُ إِلَّا لِإِنْقَادِكَ مِنْ وَرَطْبِكَ، وَلَعَلِّي قَادِرٌ عَلَى تَخْفِيفِ أَلْمِكَ، وَدَفْعِ شِكَايَتِكَ.»



## الفيل الأبيض

فَقَالَ لَهُ الْحَطَّابُ، وَهُوَ شَارِدُ الْفِكْرِ: «وَأَسْفَاهُ، أَيُّهَا الْفِيلُ الْأَبْيَضُ النَّبِيلُ الْكَرِيمُ  
النَّفْسِ! أَلَا لَيْتَكَ قَادِرٌ عَلَى إِعَاثَتِي وَإِنْقَادِي مِمَّا أَنَا فِيهِ؛ فَقَدْ ضَلَلْتُ طَرِيقِي — مُنْذُ سَبْعَةِ  
أَيَّامٍ كَامِلَةٍ — فِي هَذِهِ الْعَابَةِ الْوَاسِعَةِ الْمُوحِشَةِ، الَّتِي لَا يَقْطُنُهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ،  
وَيَبْتَغِي مِنَ الْعُودَةِ إِلَى مَدِينَةِ «بَنَارِسَ»؛ فَمَنْ لِي بِمَنْ يَهْدِينِي سَوَاءَ السَّبِيلِ؟»  
فَقَالَ لَهُ «أَبُو الْحَجَّاجِ»، وَقَدْ اِمْتَلَأَتْ نَفْسُهُ سُرُورًا وَغِبْطَةً، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مُسَاعَدَتِهِ: «مَا  
أَيْسَرَ مَا تَطْلُبُهُ أَيُّهَا الْحَطَّابُ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ظَهْرِي، لِأَحْمَلَكَ إِلَى حَيْثُ يَعْيشُ  
أَبْنَاؤُ جَنْسِكَ مِنَ النَّاسِ.»



## (٩) صَنِيعُ الْفِيلِ

فَابْتَهَجَ الْحَطَّابُ بِذَلِكَ أَشَدَّ الْابْتِهَاجِ، وَقَفَزَ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلِ الْأَبْيَضِ فَرِحًا مَسْرُورًا. ثُمَّ انْطَلَقَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» يَعدُو بِهِ مُسْرِعًا — خِلَالَ الْعَابَةِ الْوَاسِعَةِ الْأَرْجَاءِ — حَتَّى بَلَغَا مَدِينَةَ «بَنَارِسَ».

فَقَالَ لَهُ «أَبُو الْحَجَّاجِ»: «لَمْ يَبْقَ عَلَيْكَ — أَيُّهَا الْحَطَّابُ — إِلَّا بُرْهَةٌ قَلِيلَةٌ، لِتَصِلَ إِلَيَّ بِئِنَّكَ؛ فَإِنَّ مَدِينَةَ «بَنَارِسَ» — كَمَا تَرَاهَا — قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا إِلَّا خُطَوَاتٌ مَعْدُودَةٌ.»

فَهَمَّ الْحَطَّابُ بِأَنْ يَشْكُرَ لِلْفِيلِ النَّبِيلِ هَذِهِ الْيَدَ الْبَيْضَاءَ الَّتِي أَسَدَاهَا إِلَيْهِ، إِذْ أَنْقَذَهُ مِنَ الْهَلَاكِ الْمَحَقَّقِ، وَهَدَاهُ إِلَى الطَّرِيقِ بَعْدَ أَنْ ضَلَّ. وَلَكِنْ «أَبَا الْحَجَّاجِ» ابْتَدَرَهُ قَائِلًا: «كَلَّا، لَا تَشْكُرْ لِي صَنِيعِي؛ فَإِنِّي لَقَرِيرُ الْعَيْنِ، مُنْشَرِحُ الصِّدْرِ بِمَا فَعَلْتُهُ؛ فَقَدْ أَتَحَتَّ لِي فُرْصَةٌ ثَمِينَةٌ، لِأَدَاءِ وَاجِبِي فِي مُعَاوَنَةِ بَائِسٍ مَلْهُوفٍ، وَإِنْقَاذِ ضَالِّ حَائِرٍ، بَعْدَ أَنْ تَقَطَّعَتْ بِهِ الْأَسْبَابُ.»

ثُمَّ عَادَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» إِلَى كَهْفِهِ الْبَعِيدِ، وَهُوَ مُبْتَهَجٌ بِمَا أَسَدَاهُ إِلَى الْحَطَّابِ الْمُسْكِينِ مِنْ صَنِيعِ. وَلَمْ يَدِرِ الْفِيلُ النَّبِيلُ مَا يَحْبَبُهُ لَهُ الْقَدَرُ مِنْ أَعْدَاتٍ وَخُطُوبٍ، وَلَمْ يَدِرْ بِخَلْدِهِ أَنَّ الْخَيْرَ قَدْ يَجْلُبُ الشَّرَّ، وَأَنَّ الْإِحْسَانَ قَدْ يُجْزَى عَلَيْهِ بِالْإِسَاءَةِ وَالْجُحُودِ.

## (١٠) غَدْرُ الْحَطَّابِ

وَكَانَ الْحَطَّابُ — لِسُوءِ حَظٍّ «أَبِي الْحَجَّاجِ» — غَادِرًا، حَبِيثَ النَّفْسِ، لَيْثِمَ الطَّبَعِ. وَقَدْ وَسَّسَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَجَرَّهُ الطَّمَعُ إِلَى الْخُدَيْعَةِ وَالْخِيَانَةِ، وَزَيَّتَ لَهُ نَفْسُهُ الْخَبِيثَةَ أَنْ يَغْدِرَ بِصَاحِبِهِ، وَيَجْزِيَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ أَقْبَحَ الْجَزَاءِ.

وَلَمْ يَبْقَ فِي خَاطِرِهِ أَنْ «أَبَا الْحَجَّاجِ» قَدْ أَنْقَذَهُ مِنْ حَيْرَتِهِ وَضَلَالِهِ، وَوَقَاهُ عَادِيَةَ الْهَلَاكِ، وَأَنَّهُ — لِذَلِكَ — جَدِيرٌ بِالثَّنَاءِ، لِبِرِّهِ بِهِ وَعَظْفِهِ عَلَيْهِ؛ بَلْ شَغَلَهُ الطَّمَعُ عَنِ الْوَفَاءِ، وَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْغَادِرَةَ أَنْ يَكْفُرَ بِتِلْكَ النُّعْمَةِ، وَيَجْحَدَ ذَلِكَ الْإِحْسَانَ، فَقَالَ يَحْدِثُ نَفْسَهُ: «لَقَدْ هَلَكَ الْفِيلُ الْأَبْيَضُ الَّذِي كَانَ فِي قَصْرِ مَلِكِ «بَنَارِسَ»، قُبَيْلَ خُرُوجِي مِنَ الْمَدِينَةِ بِأَيَّامٍ،

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَلِكَ سَيُكَافِئُنِي أَجْزَلَ مُكَافَأَةٍ، إِذَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَوْقَعَ هَذَا الْفِيلَ فِي قَبْضَتِي  
أَسِيرًا، وَأَقْدَمُهُ لِلْمَلِكِ هَدِيَّةً تَمِيْنَةً.»

وَمَا لَبِثْتُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْجَارِمَةَ أَنْ أَصْبَحْتُ عَزْمًا وَتَضَمِيمًا، فَرَاخَ الْحَطَّابُ يُنْعِمُ  
بَصْرَهُ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ الَّتِي سَلَكَهَا «أَبُو الْحَجَّاجِ»، وَظَلَّ يُجِيلُ لِحَاظَهُ فِي أَشْجَارِهَا الْعَالِيَةِ،  
وَتَلَالِهَا الْمُرْتَفَعَةِ، وَهَضَابِهَا الشَّاهِقَةِ، الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا فِي أَثْنَاءِ السَّيْرِ؛ حَتَّى لَا يَضِلَّ طَرِيقَهُ  
إِذَا هَمَّ بِالْعُودَةِ إِلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى. وَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّى حَذَقَهَا، وَتَعَرَّفَ طَرَاتِقَهَا جَمِيعًا.

### (١١) بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ

وَلَمْ يَكِدِ الْحَطَّابُ يَصِلُ إِلَى «بَنَارِسَ»، حَتَّى مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ وَقَالَ لَهُ مَسْرُورًا: «لَقَدْ  
اهْتَدَيْتُ إِلَى الْفِيلِ الْأَبْيَضِ الْجَدِيرِ بِأَنْ يَحُلَّ مَكَانَ «أَبِي كَلْثُومٍ»، ذَلِكَ الْفِيلِ الْهَالِكِ الَّذِي  
فَقَدَهُ مَوْلَايَ، وَحَزَنَ لِفَقْدِهِ حُزْنًا شَدِيدًا.»

وَظَلَّ الْحَطَّابُ يَصِفُ لِلْمَلِكِ «بَنَارِسَ» جَمَالَ «أَبِي الْحَجَّاجِ»، وَيُطِنِّبُ لَهُ فِي تَعْدَادِ  
مَزَايَاهُ وَمَنَاقِبِهِ، حَتَّى أُعْجِبَ بِهِ الْمَلِكُ — عَلَى السَّمَاعِ — وَقَالَ لِلْحَطَّابِ: «لَيْسَ أَشْهَى إِلَيَّ  
نَفْسِي مِنَ الْحُصُولِ عَلَى هَذَا الْفِيلِ الظَّرِيفِ الَّذِي تَصَفُّهُ لِي، فَارْجِعْ إِلَى الْغَابَةِ — مِنْ فُورِكَ  
— فِي عِصَابَةِ مَنْ مَهَرَةَ صَيَّادِي الْفَيْلَةَ الْمَشْهُورِينَ فِي مَدِينَتِي. وَمَتَى نَجَحْتُمْ فِي صَيْدِ الْفِيلِ  
الْأَبْيَضِ، فَإِنِّي مُكَافِئُكُمْ وَمُكَافِئُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْزَلَ مُكَافَأَةٍ.»

### (١٢) عِنْدَ بَحِيرَةِ «اللُّوْتَسِ»

فَابْتَهَجَ الْحَطَّابُ بِمَا سَمِعَ، وَأَسْرَعَ — فِي رِفَاقَةِ الصَّيَّادِينَ — يَقُودُهُمْ فِي شِعَابِ الْغَابَةِ،  
وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الطَّرَائِقِ الْمُوَصَّلَةِ إِلَى كَهْفِ «أَبِي الْحَجَّاجِ»، حَتَّى بَلَغُوا بَحِيرَةَ «اللُّوْتَسِ» بِلا  
مَشَقَّةٍ، حَيْثُ وَجَدُوا «أَبَا الْحَجَّاجِ» يَجْمَعُ الْفَاكِهَةَ لِعِشَاءِ أُمِّهِ الْعَجُوزِ.

وَلَمْ يَكِدْ «أَبُو الْحَجَّاجِ» يَسْمَعُ وَفَعَّ خُطُواتِهِمْ، حَتَّى رَفَعَ إِلَيْهِمْ رَأْسَهُ، وَأَجَالَ فِيهِمْ  
بَصْرَهُ؛ فَلَمَحَ صَاحِبُهُ الْحَطَّابَ بَيْنَ صَيَّادِي الْأَفْيَالِ، فَأَذْرَكَ الْفِيلَ الذِّكْرِيَّ أَنَّ الْحَطَّابَ قَدْ  
عَدَرَ بِهِ، وَجَازَاهُ عَلَى مَعْرُوفِهِ أَلَّامَ جَزَاءٍ. وَتَحَقَّقَ لَهُ كَلَامُ أُمِّهِ، وَبَدِمَ عَلَى مَخَالَفَتِهِ نَصِيحَتِهَا  
الَّتَمِيْنَةَ حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدْمُ.



### (١٣) في الأسر

وَأَرَادَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» أَنْ يَهْرُبَ؛ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي قَبْضَتِهِمْ أَسِيرًا. وَلَكِنَّ الصَّيَادِينَ الْأَذْكِيَاءَ الْمُدْرِبِينَ عَلَى صَيْدِ الْفَيْلَةِ، عَدَوْا فِي أَثَرِهِ وَضَبِقُوا عَلَيْهِ مَسَالِكَ الْهَرَبِ، وَسَدُّوا مَنَاغِذَ الطَّرِيقِ، وَبَدَّلُوا كُلَّ مَا فِي وَسْعِهِمْ — مِنْ حِيلَةٍ وَمَهَارَةٍ — حَتَّى أَوْفَعُوهُ فِي شِبَاكِهِمْ أَسِيرًا ثُمَّ سَارُوا بِهِ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مَدِينَةِ «بَنَارِسَ»، مَسْرُورِينَ مَزْهُوِينَ بِمَا وَفَّقُوا إِلَيْهِ مِنْ قُوَزٍ وَانْتِصَارٍ.

### (١٤) حُزْنٌ «أُمُّ شَيْلٍ»

وَضَلَّتْ «أُمُّ شَيْلٍ» الْمَسْكِينَةَ جَائِمَةً فِي كَهْفِهَا تَرْتَقِبُ عَوْدَةَ وَحِيدِهَا «أَبِي الْحَجَّاجِ»، حَتَّى جَاءَ اللَّيْلُ وَلَمْ يَعُدْ إِلَيْهَا؛ فَتَوَجَّسَتْ شَرًّا، وَسَاوَرَتْ نَفْسَهَا الْهُمُومُ وَالْأَحْزَانُ، وَخَشِيَتْ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ سُوءٌ، أَوْ لَحِقَ بِهِ أَدَى.

وَلَمَّا طَالَتْ غَيْبُهُ «أَبِي الْحَجَّاجِ»، أَيْقَنْتْ

«أُمُّ شَيْلٍ» الْعُجُوزَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ أَسِيرًا فِي قَبْضَةِ الصَّيَادِينَ؛ فَوَلَوَتْ وَبَكَتْ، وَظَلَّتْ تَنْدُبُ حَظَّهَا النَّاعِسِ، وَتَقُولُ فِي نَفْسِهَا مَحْزُونَةً مُتَحَسِّرَةً: «الْوَيْلُ لِي مِنْ بَعْدِكَ يَا «أَبَا الْحَجَّاجِ». فَمَا أَدْرِي: كَيْفَ أَصْنَعُ بَعْدَ أَنْ فَقَدْتُ مَعُونَتَكَ، وَحُرِمْتُ بِرِّكَ بِي، وَعَطْفِكَ عَلَيَّ؟ وَمَا أَعْرِفُ: كَيْفَ أَعِيشُ فِي هَذِهِ الْعَزْلَةِ، وَلَيْسَ لِي مَنْ يُطْعِمُنِي تِلْكَ الْفَاكِهَةَ الشَّهِيَّةَ، أَوْ يَهْدِينِي إِلَى بُحَيْرَةِ «اللُّوتِسِ»، لِأُرْوِيَ مِنْهَا ظَمَمِي إِذَا عَطِشْتُ؟ أَلَا إِنِّي — مِنْ بَعْدِكَ يَا «أَبَا الْحَجَّاجِ» — لَا شَكَّ هَالِكَةٌ جُوعًا وَعَطْشًا، فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ النَّائِيَةِ! فَيَا لَيْتَنَا تَنَبَّأْنَا بِهَذَا الْمَصَابِ قَبْلَ وَقُوعِهِ، وَفَطْنَا إِلَى هَذِهِ الْكَارِثَةِ، وَعَرَفْنَا عَوَاقِبَ الْأُمُورِ قَبْلَ أَنْ تَحُلَّ بِنَا مُفَاجِئَةً، وَتَنْزَلَ بِنَا عَلَى غِرَّةٍ. وَيَا لَيْتَنَا لَبِئْنَا — حَيْثُ كُنَّا — آمِنِينَ، لَا يَرُوعُنَا عَدُوٌّ، وَلَا يَجْرُؤُ عَلَى الدُّنُوِّ مِنَّا كَائِنْ كَانَ!»

### (١٥) حُزْنٌ «أَبِي الْحَجَّاجِ»

أَمَّا جَزَعُ «أَبِي الْحَجَّاجِ» وَحُزْنُهُ، فَقَدْ فَاقَا جَزَعَ أُمَّه وَحُزْنَهَا، فَلَقَدْ بَرَحَ بِهِ الْوَجْدُ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْأَلَمُ، لَوْحْدَةِ أُمَّه وَضَعْفِهَا وَعَجْزِهَا عَنِ الْحَيَاةِ مِنْ بَعْدِهِ. وَظَلَّ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ

سائرٌ في طريقه إلى حيث يقوده صيادوه الأَشْدَاءُ: «لَكَ اللهُ يَا «أُمَّ شَيْلٍ»! فَمَا أَدْرِي: كَيْفَ تُصْبِحِينَ فِي مَحَلِّ بَعْدِي، أَيُّهَا الأُمُّ الحَنُونُ البَارَّةُ؟ أَلَا لَيْتَنِي أَصْغَيْتِ إِلَى نَصِيحَتِكَ، وَقَبِلْتِ رَأْيِي، وَلَمْ أَخَالَفِ مَشُورَتَكَ. إِذَنْ غَنِمْتُ السَّلَامَةَ وَالتَّوْفِيقَ، وَنَجَوْتُ مِنَ الغَدْرِ وَالجُّوْدِ.

لَقَدْ حَذَّرْتَنِي — يَا أُمَاهُ — كَيْدَ الإِنْسَانِ وَجُودَهُ؛ فَلَمْ أَصْغِ إِلَى نَصِيحَتِكَ، وَلَمْ أَتَنَفَّعْ بِتَحذِيرِكَ. وَلَوْ أَنَّنِي سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ، وَأَخَذْتُ بِرَأْيِكَ السَّيِّدِ؛ لَعِشْتُ طُولَ عُمْرِي هَانِئًا وَادِعًا، نَاعِمًا بِالحُرِّيَّةِ بِجِوَارِكَ، وَلَمْ أَقْعُ فِي قَبْضَةِ هَؤُلَاءِ الأَثَرَارِ الغَادِرِينَ.

وَمَا أَدْرِي: كَيْفَ تَصْنَعِينَ — يَا أُمَاهُ — بَعْدَ أَنْ تَقَطَّعْتَ بِكَ أَسْبَابَ الحَيَاةِ، وَفَقَدْتَ نَاصِرَكَ الوَفِيَّ الأَمِينِ، وَحَرَمْتَ وَلَدَكَ الصَّادِقَ المُعِينِ؟»

### (١٦) مُكَافَأَةُ المَلِكِ

وَلَمَّا مَثَلَ الصِّيَادُونَ وَالحَطَّابُ بَيْنَ يَدَيِ المَلِكِ، وَمَعَهُمُ الفَيْلُ الأَبْيَضُ، أُعْجِبَ المَلِكُ بِمَنْظَرِهِ، وَسَرَّ بِهِ سُرورًا عَظِيمًا. وَكَانَتْ أَمَارَاتُ الكَآبَةِ وَالحَزْنُ بِأَدِيَّةِ عَلِيٍّ مَلَامِحِ «أَبِي الحَجَّاجِ»، وَلِكِنِّهَا لَمْ تَتَلَّ مِنْ جَمَالِ شَكْلِهِ، وَبِهَاءِ مَنْظَرِهِ؛ فَقالَ المَلِكُ: «مَا أَجْمَلُهُ فَيْلًا رَائِعَ المَنْظَرِ، بِهِي المَلَامِحِ، مُشْرِقَ الطَّلَعِ! فَلاتَتَخَذَنَّهُ — مُنْذُ اليَوْمِ — مَرَكَبِي؛ فَهُوَ أَفْخَمُ فَيْلٍ رَأَيْتُهُ أَوْ سَمِعْتُ بِهِ فِي حَيَاتِي.»

ثُمَّ أَجْزَلَ المَلِكُ مُكَافَأَةَ الحَطَّابِ وَالصِّيَادِينَ، وَأَمَرَ أَتْبَاعَهُ أَنْ يَتَخَيَّرُوا أَحْسَنَ مَكَانٍ فِي الإِصْطَبْلِ المَلَكِيِّ؛ لِيَحِلَّ فِيهِ «أَبُو الحَجَّاجِ»، كَمَا أَمَرَهُمْ أَنْ يُحْلُوهُ بِأَتَمَنِ اللَّالِيِّ وَأَنْفَسِ الأَيُّوقِيَّتِ.

### (١٧) مَرَضُ «أَبِي الحَجَّاجِ»

وَمَرَّتْ عَلَيَّ هَذَا الحَادِثِ أَيَّامٌ قَلِيلَةً، ثُمَّ أَرَادَ المَلِكُ أَنْ يَزَكِّبَ الفَيْلَ الأَبْيَضَ، وَيَطُوفَ بِهِ فِي المَدِينَةِ؛ فَقالَ لَهُ أَتْبَاعُهُ، وَالحَزْنُ بِأَدِيَّةِ عَلِيٍّ وَجُوهِهِمْ: «إِنَّ الفَيْلَ الأَبْيَضَ — يَا مَوْلَانَا — قَدْ مَرَضَ مَرَضًا حَظِيرًا، وَانْتَابَهُ ضَعْفٌ شَدِيدٌ، وَهُوَ — مُنْذُ حَضَرَ أَرْضَنَا — لَمْ يَذُقْ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا. وَقَدْ تَخَيَّرْنَا لَهُ أَشْهَى الأَطْعَمَةِ وَالأَشْرِبَةِ مِنَ الفَاكِهَةِ وَالحَشَائِشِ، فَلَمْ يَذُقْ مِنْهَا شَيْئًا.»



فَارْتَاعَ الْمَلِكُ لِهَذَا الذَّبَابِ، وَأَسْرَعَ - فِي الْحَالِ - إِلَى الْإِصْطِبُلِ؛ فَرَأَى عَلَى وَجْهِ «أَبِي  
 الْحَجَّاجِ» سَيْمًا الْكَدْرِ وَالْهَمِّ، فَصَاحَ بِهِ قَائِلًا: «مَا بَالُكَ - أَيُّهَا الْفِيلُ الْكَرِيمُ - قَدْ تَغَيَّرَتْ  
 مَلَامِحُكَ، وَسَيَّءَ وَجْهُكَ وَتَبَدَّلَتْ أَطْوَارُكَ؟ أَيُّ شَيْءٍ بَغَضَ طَعَامَنَا وَشَرَابَنَا إِلَيْكَ؟ أَتَرَى  
 خَدَمِي قَدْ أَهْمَلُوا الْعِنَايَةَ بِأَمْرِكَ؟ أَمْ تَرَاهُمْ قَصَّروا فِي تَحَبُّرِ مَا يُرْضِيكَ مِنْ لَذَائِدِ الْأَطْعِمَةِ  
 الَّتِي تَشْتَهِيهَا نَفْسُكَ؟»

## (١٨) شَكْوَى «أَبِي الْحَجَّاجِ»

فَهَزَّ «أَبُو الْحَجَّاجِ» رَأْسَهُ الضَّخْمَ، وَقَالَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ، قَدِ ارْتَسَمَتْ فِيهِ نَبْرَاتُ الْحُزْنِ وَالْأَسَى: «كَلَّا يَا مَوْلَايَ!»

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ، وَقَدِ اشْتَدَّ شَوْقُهُ إِلَى تَعْرِفِ قِصَّتِهِ: «خَبِّرْنِي — فِي صِرَاحَةٍ — أَيُّهَا الْفَيْلُ الْكَرِيمُ عَنْ سِرِّ هَمِّكَ وَاکْتِتَابِكَ؛ فَإِنِّي بَادِلُ جُهْدِي فِي إِسْعَادِكَ وَتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِكَ، إِذَا وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.»

فَقَالَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» فِي لَهَجَةٍ حَزِينَةٍ: «شُكْرًا لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ عَلَى عِنَايَتِكَ بِأَمْرِي، وَاهْتِمَامِكَ بِشَأْنِي. وَلَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ مَصْدَرِ حُزْنِي، وَاقْتَرَحْتَ عَلَيَّ أَنْ أَتَمَنَّى عَلَيْكَ الْأَمَانِيَّ. وَلَيْسَ لِي مِنْ أُمْنِيَّةٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ أَعُودَ إِلَى أُمِّي الْعَجُوزِ النَّاعِسَةِ الْعُمِيَاءِ، الَّتِي تَرَكَتْهَا فِي الْغَابَةِ وَحِيدَةً لَا عَائِلَ لَهَا، وَهِيَ تَوْشِكُ أَنْ تَهْلِكَ جُوعًا وَعَطْشًا فِي كَهْفِهَا. وَلَنْ أَطْعَمَ شَيْئًا بَعْدَهَا، وَلَنْ أَسْتَسِيغَ الرِّادَ وَهِيَ تَنْصَوِّرُ جُوعًا، وَلَا تَجِدُ إِلَى الطَّعَامِ سَبِيلًا.»

فَسَأَلَهُ مَلِكُ «بَنَارَسَ» عَنْ قِصَّتِهِ؛ فَحَدَّثَهُ بِهَا كُلَّهَا، وَأَخْبَرَهُ بِانْتِقَالِهِ هُوَ وَأُمُّهُ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْ قَطِيعِ الْفَيْلَةِ، وَكَيْفَ عَاشَ مَعَ أُمِّهِ أَسْعَدَ عَيْشٍ فِي عَزَلَةٍ وَإِدْعَةٍ هَنِئِيَّةٍ؛ حَتَّى جَاءَهُمَا الْحَطَّابُ، وَكَانَ مَقْدَمُهُ عَلَيْهِمَا شَوْمًا وَخَرَابًا؛ فَكَدَّرَ صَفْوَ عَيْشِهِمَا الرَّغِيدِ بِخِيَانَتِهِ وَعَدْرِهِ.

## (١٩) الْفَكَكُ مِنَ الْأَسْرِ

كَانَ مَلِكُ «بَنَارَسَ» عَادِلًا رَحِيمًا، يُؤْتِرُ الْإِنْصَافَ، وَيَرْتَاحُ لِلْمَعْرُوفِ؛ فَقَالَ لِلْفَيْلِ الْأَبْيَضِ، عَلَى شَعْفِهِ بِهِ، وَرَعْبَتِهِ فِي اسْتِبْقَائِهِ: «أَيُّهَا الْحَيَوَانُ النَّبِيلُ، إِنَّ طَبِيبَةَ قَلْبِكَ، وَحَسَنَ طَوْبِيَّتِكَ، قَدِ أَظْهَرَا — أُمَامِي — خِسَّةَ الْجِنْسِ الْأَدْمِيِّ وَعَدْرَهُ. وَقَدِ أَطْلَقْتُ سَرَاحَكَ — مُنْذُ الْآنَ —

فَعُدْ إِلَى أُمَّكَ وَارْزَعْهَا، وَتَوَلَّ أَمْرَهَا، وَثَابِرْ عَلَى بَرِّكَ بِهَا، وَعَطْفِكَ عَلَيْهَا مَا حَبِيبَتْ.»  
فَشَكَرَ لَهُ «أَبُو الْحَجَّاجِ» عَدَالَتَهُ وَكِرَمَهُ وَإِحْسَانَهُ، وَقَالَ لَهُ مُغْتَبِطًا فَرِحَانًا: «لَنْ أَنْسَى لَكَ هَذَا الْجَمِيلَ!»

## (٢٠) اجْتِمَاعُ الشَّمْلِ

ثُمَّ أَسْرَعَ «أَبُو الْحَجَّاجِ» فِي طَرِيقِهِ إِلَى كَهْفِ أُمِّهِ، عَلَى مَا بِهِ مِنْ ضَعْفٍ وَهُزَالٍ، وَجُوعٍ وَعَطَشٍ. وَلَا تَسَلْ عَنْ فَرْجِهِ وَابْتِهَاجِهِ حِينَ رَأَى أُمَّهُ لَا تَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ. وَلَا تَسَلْ عَنْ فَرْحِ «أُمِّ شَيْلٍ» بِوَلَدِهَا حِينَ عَادَ إِلَيْهَا بَعْدَ يَأْسٍ مِنْ عَوْدَتِهِ!

وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَقِرُّ بِهِ الْمَقَامُ، حَتَّى قَصَّ عَلَى أُمِّهِ كُلَّ مَا حَدَّثَ لَهُ فِي أَثْنَاءِ غَيْبَتِهِ. فَقَالَتْ لَهُ مُتَأَلِّمَةً: «لَقَدْ كَانَ عَلَيْكَ — يَا وَلَدِي — أَنْ تُصْغِيَ إِلَيَّ نَصِيحَتِي! فَهَلْ أَمَنْتَ الْآنَ بِعَدْرِ الْأَدَمِيِّينَ، وَجُحُودِ بَنِي الْإِنْسَانِ؟ وَهَلْ أَدْرَكْتَ أَنَّ سُوءَ النِّيَّةِ — كَمَا حَدَّثْتَكِ — مُتَأَصِّلٌ فِي نَفُوسِهِمْ مُنْذُ الْقَدَمِ؟»

فَقَالَ لَهَا «أَبُو الْحَجَّاجِ»: «لَيْسُوا جَمِيعًا خَوَنَةً وَغَادِرِينَ — يَا أُمَّاهُ — فَإِنَّ فِيهِمُ الطَّيِّبَ وَالْخَبِيثَ، وَالْمُحْسِنَ وَالْمُسِيءَ. وَلَوْلَا أَنَّ مَلِكَ «بَنَارِسَ» عَادِلٌ رَحِيمٌ، سَرِي النَّفْسِ، لَمَا وَجَدْتُ إِلَى الْفَكَاحِ مِنْ أَسْرِي سَبِيلًا طَوَّلَ الْحَيَاةَ. وَمَا أَحْسَنَ أَنْ نَنْسَى — يَا أُمَّاهُ — عَدْرَ الْحَطَّابِ، وَلَا نَذْكَرُ إِلَّا كَرَمَ الْمَلِكِ وَإِحْسَانَهُ؛ فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ.»

## (٢١) خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَقَدْ بَرَّ «أَبُو الْحَجَّاجِ» بِمَا قَالَ، وَنَسِيَ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — عَدْرَ الْحَطَّابِ وَخِيَانَتَهُ، وَجُحُودَهُ وَإِسَاءَتَهُ.

وَلَكِنَّهُ ظَلَّ — حَيَاتَهُ كُلَّهَا — يَذْكَرُ صَنِيعَ مَلِكِ «بَنَارِسَ»، وَيَشْكُرُ لَهُ مَعْرُوفَهُ الَّذِي أَسَدَاهُ، وَلَا يَنْسَاهُ.